تـمّ تحميل هذا الملفّ من مكتبة الأديب الرّاحل رمضان لاوند | جميع الحقوق محفوظة © www.RamadanLawand.com

الأَديب و المُفكِّر الرَّاحِل
رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَند
سيّد المنابر

بسم الله الرحمن الرحيم

الإعلام التربوي والاجتماعي
وقاية وعلاج

أخطر ما في القضايا والوقائع الخاصة بالإنسان باعتباره كائناً يملك فكراً وعاطفة وإرادة يصنع بها حياته ويشكل في ضوئها ذاته ويعين عن طريقها علاقته بغيره من الناس أو علاقته بأشياء الكون وحقائق ما وراء الكون ...نقول أن أخطر ما في هذه القضايا والوقائع هو الدقة في الأداء والوضوح في التعبير بحيث لا يعود مجال للالتباس في الفهم والاضطراب في الحوار كما يكون الشأن في حوار الطرشان.

والسبب في أهمية الدقة في الأداء وخطورة الوضوح في التعبير هو أن الموضوعات ذات الطابع الإنساني حتى اليوم مستعصية على الأطر التي تخضع لها. ما دامت الطبيعة والنبات والأكوان الخارجية من تلك التي تعمل أو تنمو وتتحرك بسنن ثابتة وقوانين والتي تنتظم بها معادلات رياضية ثابتة . ولذلك كان حرصنا شديداً على وضع الاصطلاحات الدقيقة الأداء لجزئيات العنوان الذي نقدم في ظله فقرات هذه المحاضرة ..

الجزئية الأساسية في هذا العنوان هي كلمة " الإعلام " فما هو الإعلام ؟ هل هو علم خالص ذو قوانين ثابتة ومعادلات لا تخطىء الغرض منها ؟ أم هو فن يستند إلى المواهب الخاصة التي لا تزال المناهج العلمية المادية عاجزة عن استيعابها وتأطيرها واكتشاف مصادر الأسرار المخبوءة فيها ؟ أم هو أخيراً مزيج من العلم والفن ؟

الواقع أن الإعلام هو جزء من علوم الاتصال بل هو في مفهومه اللغوي .. يكاد يكون عنواناً على علم الاتصال كله . ذلك لأن الغرض من كل اتصال هو تحقيق إعلام معين أي إيصال رسالة معينة ثم استقبال رد عنها . ولذلك اتفق العماء المهتمون بظاهرة الإتصال على أن للإعلام أركاناً رئيسية هي : –

1) المرسل .

2) الرسالة .

3) أداة الإرسال .

4) المرسل إليه

5) الرد الصادر عن المرسل إليه .

ثم تتكرر المسيرة عبر هذه الأركان مرة أخرى فيتكون من ذلك ما نطلق عليه اسم الحوار .

وإذاً فالإعلام هو علم الحوار المتبادل بين مرسل ومرسل إليه . والإنسان هو موضوع هذا الحوار وبتعبير آخر هو علم يتعامل مع الإنسان فرداً أو جماعة . فالإنسان هو مادته الرئيسية من أجله وضعت قواعده وطرحت نظرياته وفي سبيل استيعابه تحقق الانجازات الفكرية والفنية والتقنية الخاصة به .

ولما كان الإنسان حتى اليوم مستعصياً على التصنيف العلمي والمادي الدقيق ويرفض الخضوع لحتميات المعادلات والقوانين الرياضية في كل وقت بسبب من تمتعه بروح المبادرة أي حرية الفعل ورد الفعل ، فإنّ الإعلام الذي هو علم إنساني مستعص بدوره على حتمية هذه القوانين بالمعنى الدقيق لمفهوم هذه الكلمة .

وقد تعين للإعلام في عنوان هذه المحاضرة ميدانان هما ميدان التربية وميدان الاجتماع وطبيعي أن تكون المواصفات التي يتميز بها الإعلام من الناحية المنهجية هي نفسها المواصفات التي يستقل بها ميداناً التربية والاجتماع .

أما المقصود من الوقاية والعلاج فهو تماماً ما يقصد من الوقاية والعلاج في ميدان الطبابة . فالوقاية تتم باتخاذ الاجراءات التي يتجنب بها المرض والعلاج يتم باتخاذ الاجراءات التي يقاوم بها المرض بعد وقوعه.

وخلاصة القول أن الإعلام بعامة وسط بين المادة العلمية التي تتأطر بالقوانين وتخضع للمعادلات الرياضية وبين المادة الفنية التي تستند إلى المواهب الخاصة وحرية الاختيار في الفعل ورد الفعل .

فالإعلام علم موضوعي في بعض جوانبه وفن يستند إلى المواهب الخاصة في بعضها الاخر كما أنه موصول بالإنجازات التقنية التي حققتها التكنولوجيا العصرية المتطورة .

على أن علماء الاتصال فرقوا عملياً : لتحقيق مزيد من الدقة بين الإعلام وبين أنواع أخرى من الاتصال . أما الإعلام بمعناه الدقيق في ميدان التطبيق فهو كما جاء في ص 11 من كتاب " الإعلام والاتصال بالجماهير " للدكتور ابراهيم إمام : " تزويد الناس بالأخبار الصحيحة " والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة التي تساعدهم

على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات ، بحيث يعتبر هذا الرأي تعبيرًا موضوعياً عن عقلية الجماهير واتجاهاتهم وميولهم ومعنى ذلك أن الغاية الوحيدة من الإعلام هي الإقناع عن طريق المعلومات والحقائق والأرقام والاحصاءات ونحو ذلك".. ويضيف الدكتور إمام تعريفات أخرى نختار منها تعريفاً لإعلامي ألماني هو أوتو غروت يقول فيه : " الإعلام هو التعبير الموضوعي عن عقلية الجماهي وروحها وميولها واتجاهاتها في نفس الوقت ." ..

هذان التعريفان متفقان في الجوهر حين يؤكد أن حقيقتين أساسيتين هما الموضوعية والتعبير عن روح الجماهير وميولها .

واستكمالاً لهذا الجانب من الموضوع يجدر بنا البحث عن تعريف للإعلام في الإسلام وبتعبير أدق في القرآن. وقد حرصنا على استخراج التعريف القرآني باعتبار أن هذا الكتاب الإلهي الكريم هو رسالة إعلامية في جوهرها . ولما كان القرآن وحياً من السماء نزل على قلب محمد عليه السلام هدى ورحمة ونوراً يمشي بين الناس فقد وجب أن يكون مفهوم الإعلام في هذا الكتاب المقدس عملية تزويد بالمعلومات الصحيحة لا تعبيراً عن ميول الجماهير واتجاهاتها الظاهرة بل تنزيلاً بالحق من لدن حكيم خبير . وقد وصف هذا الإعلام في القرآن بأنه نور يسعى بين أيدي المؤمنين وأنه رحمة لهم وبرهان من الله عز وجل . وإذاً فليس الإعلام القرآني تعبيراً عن ميول الجماهير بل تقويماً لميول الجماهير وعودة بهم إلى الفطرة السليمة التي تشترك فيها الناس على سواء لا فرق بين مؤمنهم وكافرهم ولا بين صالحهم وخبيثهم من حيث الأساس . وتتضح هذه المعاني كلها فيما يلي :

1) وصف محمد عليه السلام في القرآن بأنه رحمة للعالمين : " وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " الآية 107 من سورة الأنبياء .

2) وصف القرآن نفسه بأنه " الَر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ " الآية 1 من سورة ابراهيم .

3) قوله عز وجل في الآية 8 من سورة التغابن : " فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا .." ..

أما قضية أن الغاية من هذا النور وتلك الرحمة هي العودة بالناس إلى الفطرة التي فطروا عليها فتظهر في قوله عز من قائل في الآية 30 من سورة الروم : " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " ..

هكذا يستبين لنا أن مفهوم الإعلام في القرآن يتفق في بعض تعريفه مع التعريفات العلمية المتعارف عليها اليوم وفي بعضه الآخر يتجاوز هذه التعريفات بتقرير أن الإعلام بالحق يأتي من فوق ويقصد الى العودة بالناس إلى فطرتهم المشتركة . ومن الجائز هنا في شيء من التوسع أن نجد تشابهاً بين ما يسمى روح الجماهير وبين الفطرة المشتركة بين الناس وإن لم يكن هذا التشابه كاملاً بسبب أن " روح الجماهير " في وعي الناس ليس واحداً في كل الأمم والحضارات بينما الفطرة هي في القرآن حقيقة إنسانية مشتركة.

أطراف الإعلام :

والإعلام ظاهرة اتصال يتم بين الفرد والفرد ويتم بين الفرد والجماعة كما يكون متبادلاً يجري على صورة حوار مباشر بين فرد وفرد أو فرد وأفراد قليلين . وحوار غير مباشر لا يخلو من الصعوبة بين الفرد والجماهير الكثيرة التي يصعب إقامة حوار معها . ويضيف القرآن إلى أطراف الحوار طرفاً آخر هو هذا الحوار الذي يجري في اتجاه واحد بين أشياء الكون كلها وبين الفرد الواحد أو بين الأفراد الكثيرين . فالوحي السماوي يجد في كل المخلوقات التي يتعامل الإنسان معها ابتداء من أكوان الفضاء نزولا حتى أصغر المخلوقات مصدراً إعلامياً يستوعب الإنسان معانيه في حدود ما يملك من المواهب والقدرة على الفهم . فالإنسان بمجرد التعامل مع هذه الأشياء، يستنطقها ويصغي إلى همساتها ويفهم عنها بقدر ما يتصف به من الذكاء وصفاء الذهن ودقة الإحساس وعمق الاستنباط .

والقرآن يقدم سلسلة من النماذج التي يتم بها هذا النوع من الحوار لغرض الوصول إلى الحقيقة واستيعاب الرسالة الإعلامية وأبرز هذه النماذج قصة تعامل ابراهيم الخليل عليه السلام مع الكون من حوله . فقد أبهره الكوكب المضيء في الليل فقال هذا ربي .. فلما غاب الكوكب وظهر القمر بنوره الأعظم قال : بل هذا ربي .. فإذا اشرقت الشمس بنور ربها فوجىء بروعة ضيائها فقال : بل هذا ربي .. حتى إذا غابت الشمس واختفى ضوءها أدرك أن وراء هذه المحسوسات حقيقة ثابتة لا تتغير فارتفع بدرجة وعيه إلى اكتشاف الذات الإلهية مستنداً إلى مقاييس الفطرة السليمة التي فطر عليها . كل هذه المعاني نجدها في قوله عز من قائل : "وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75)فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (76)فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77)فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا

تُشْرِكُونَ (78)إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ(79) ".. الآيات 75 – 79 من سورة الانعام .

هكذا تتضح لنا أبعاد الإعلام في مفهوم العصر كما في مفهوم القرآن الكريم . وهذا الأخير كما هو ظاهر أكثر شمولاً وأقدر على استيعاب الرسائل الإعلامية .

ومن هنا يتبين لنا أيضاً أن أطراف الرسالة الإعلامية كثيرة متنوعة المصادر بتنوع أشكال الاتصال وطرائق الحوار.

الإعلام في محاضرة اليوم :

ولما كان موضوع الإعلام في محاضرتنا لهذا اليوم متصلاً بالعملية التربوية والميدان الاجتماعي في مرحلتي الوقاية والعلاج فإنّ من الطبيعي أن يكون على صورتين أساسيتين : الصورة التي يتم فيها حوار متبادل ومباشر بين المربي وبين من يتصل به من الصبيان والبنات ، ثم الصورة التي يتم فيها هذا الحوار مع صعوبة في التبادل بين الإعلامي الموجه والحامل للحقائق الثابتة وبين الجماهير التي هي جسم المجتمع. أي أن الإعلام في هذا الميدان هو فن التعامل مع الإنسان فرداً أو جماعة مع العلم أن الفصل الحاسم بين الفردية والجماعية غير كامل ولا هو دقيق الأبعاد. أما الأطراف التي يستوعبها الإعلام التربوي الاجتماعي فهي كثيرة جداً ومتنوعة جداً . فهناك الأبوان وأفراد الأسرة من الصبيات والبنات . ثم المدرسون وطلابهم في المراحل الدراسية كلها . ثم الصحفيون والقراء . والإذاعيون في الإذاعة المسموعة أوالمرئية والمستمعون أو المشاهدون . والمؤلفون للكتب والمسرحيون والخطباء والمحاضرون في النوادي العامة وغيرهم ، ولكل من هؤلاء دوره المؤثر فيمن يتصل بهم ويحاورهم والتأثر بمن يتصل بهم ويحاورهم.

الإعلام التربوي الوقائي في الأسرة :

والمقصود بإعلام التربوي الوقائي هو الذي يتم غالباً في ميدان الأسرة أولاً وبالذات ثم في ميدان التعليم عبر مراحله كلها . والثابت أن الإعلام التربوي الذي يجرى في نطاق الأسرة هو أخطر أنواع الإعلام وأبعدها تأثيراً في صنع الأجيال المستقبلية . فالعلاقة بين الأبوين وأطفالهما تتم في وقت يكون فيه الأطفال أقرب إلى الفطرة السليمة التي تتصف بالتوازن وتعرى من كل المؤثرات التي تفسدها وتنحرف بها عما خلقت له. والأطفال في هذه

السن المبكرة أشبه ما يكونون باللوحات البيضاء التي يصعب محو ما يكتب عليها أو بإعلام ذات حساسية فائقة يتعذر تغيير الصورة التي تنطبع بها.

وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هذه الظاهرة بصدد التشبيه إلى خطورة مرحلة الطفولة والتحذير من الآثار السيئة التي تنجم عن أي تصرف غير مسؤول معها . قال عليه السلام ما معناه : " المولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه" وهو يقصد بذلك إلى تقرير أن الإعلام التربوي الصحيح هو الذي يتفق مع الفطرة التي يخلق الأطفال عليها . وفسادها يتم حين يتعرض الطفل للتهويد أو التمجيس أو التنصير وليسد المقصود بالتهويد والتمجيس والنصير حصر عوامل الانحراف عن الفطرة السلمية بما عدده من الاتجاهات غير السليمة لأنه جاء بها على سبيل التمثيل وحسب .

والفطرة في نظر القرآن هي الإسلام . والعكس صحيح فالإسلام هو دين الفطرة . هذه الحقيقة يعبر عنها كتاب الله في قوله تبارك وتعالى الذي أوردناه قبل قليل : " " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " .. الآية 30 من سورة الروم.

وإذاً فإنّ حجر الأساس في الإعلام التربوي الوقائي هو الالتزام بإطار الفطرة ومعطياتها الأساسية والتي هي في صميم التكوين الإنسان . ولما كانت الوحدانية بشروطها ولوازمها الفكرية والخلقية هي التي ترمز إلى عملية التكوين الفطري فقد وجب أن تكون هذه الوحدانية هي نقطة الانطلاق لإعلام تربوي وقائي سليم . يؤكد هذه الحقيقة قوله تبارك وتعالى : " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ " الآية 172 سورة الأعراف .

ويترتب على الإيمان بالوحدانية أن تجري وقائع الحياة اليومية في الأسرة على أساس من التوازن النفسي والالتزام بالقيم الخلقية النابعة من مفهوم الوحدانية .

والمقصود بالتوازن النفسي أن يهيمن الأبوان على نفسيهما في تعاملهما اليومي بحيث يصبحان القدوة العملية الصالحة للأطفال الذين يعايشونهما ويجدون فيهما الصورة الصحيحة للعالم الخارجي فإذا كبروا خرجوا إلى الناس وهم يرون فيهم ما كانوا يرونه في أبويهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وطبيعي أننا هنا لن نقوم بعملية مسح مفصل للصفات والشروط التي يجب أن يتميز بها الأبوان فمحلها في غير هذه المناسبة . لكن المطلوب من الأبوين وهما المحاور الأساسي بالنسبة إلى الأطفال والمصدر الأكبر للمعلومات والحقائق والمواقف وأنواع السلوك ومفهومات الخير والشر والحق والباطل . إن المطلوب من الأبوين

لكي يمارسا عملاً إعلامياً تربوياً سليماً في مواجهة أطفالهما هو أن يحافظا على التوازن النفسي بحيث تكون أقوالهما وأفعالهما وطبيعة العلاقة بينهما هي النموذج الأمثل الذي يتعلم الأطفال منه فن الحياة ويستلهمون منه القيم الخلقية ويجدون فيه القدوة الوحيدة لهم .

ومن الطبيعي أن تنتقل ظاهرة التوازن عند الأبوين الى الأطفال فإذا بهم يخرجون إلى الدنيا صوراً طبق الأصل الذي هو الأبوان.

أما القيم الخلقية النابعة من مفهوم الوحدانية والتي هي نقطة الانطلاق في الإعلام التربوي الإسلامي فمن الممكن حصرها نسبياً فيما يلي : -

1) التوازن بين القول والفعل . فليس أسوأ تأثيراً في نفوس الأطفال من أن يلاحظوا تناقضاً واضحاً بين نصائح الأبوين وتوجيهاتهما وبين سلوكهما العملي . والأطفال شديدو الملاحظة مع عمق في التأثير لا يغيب عنهم شيء كثير أو قليل مما يجري في حياة الأسرة . وقد أثار القرآن الكريم موضوع التناقض بين القول والفعل واعتبر القول الذي لا يصدقه الفعل سلوكاً مقيتاً جداً . قال تبارك وتعالى في محكم تنزيله : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (2)كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (3)". الآيتان 2 -3 من سورة الصف.

2) إيقاظ الوعي بالحق والواجب . فالوعي بالحق هو الذي يمنح الطفل احساسه بالكرامة ويغذيه بالشجاعة في القول والفعل بحيث ينتفي الخوف عنده من توجيه السؤال والاستفهام عما يريد معرفته وانتفاء الخوف لا يعني الوقاحة ومجاوزة الحدود في التعامل مع الأبوين . ويترتب على هذا الوعي أن يكون من حق الطفل الحصول على المكافأة الأدبية أو المادية التي يستحقها فلا يغصب حقه لأي سبب من الأسباب وفي أي ظرف من الظروف والوعي بالحق الذي يمنح الطفل احساسه بالكرامة هو الذي يقرره كتاب الله عز وجل في قوله : " وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ".. الآية 70 من سورة الإسراء ، وتكريم بني آدم لا ينسحب على مرحلة معينة من العمر بل ينسحب على الكبير والصغير دون استثناء . فإذا شب الطفل عن الطوق وخرج إلى الناس وهو واع بحقه في الكرامة عز عليه أن يتنازل عنها أو أن يسكت عمن يغمز من قناتها ازدراء به وتجاهلاً لحقه فيها.

أما الوعي بالواجب فهو الذي يتعلم به الطفل فن التصرف بحقه ويتعرف به الحدود التي يجب أن يقف عندها . فإذا كانت الكرامة حقاً له فإنّ الأدب في استخدام هذا الحق هو واجبه الأول كما أن الالتزام بالطاعة واجب آخر للحفاظ على وحدة الأسرة . والثابت أن الأطفال الذين لا يعرفون حدود الحق والواجب هم الذين

لم يقتبسوا عن الوالدين خلفية التوازن والتكامل فهم بين مدلل أفسده الوالدان بتعويدهما إياه على نيل كل ما يرغب في نيله وبين محروم مضطهد يعاني عقدة الحرمان والاضطهاد إما لأسباب تتصل بسلوك الوالدين معاً على سواء أو بالانحراف عند أحدهما.

إن معرفة الحدود الفاصلة بين الحق والواجب هي التي تترتب على توازن الأبوين في التعامل مع أطفالهما فلا تكون مكافأة إلا مقابل الإحسان ولا تكون عقوبة إلا مقابل الإساءة .

3) الوعي بالمسؤولية : هذا النوع من الوعي هو في الغالب حصيلة السلوك العملي لكل من الابوين فالأم التي لا تنهض لمسؤوليات الأسرة في حدود ما خلقت له تعطي صورة سيئة لواجبات الأمومة . وبذلك يختلط مفهوم الأمومة عند الطفل بألوان من السلوك والمواقف تهتز بها صورة الحياة الأسرية وتفقد حرمتها في نفسه. والنتيجة هي ذاتها حين لا يكون الوالد على مستوى المسؤولية ولا تتجاوز مع واجب الرعاية المطلوبة منه لصالح أسرته . إن غياب الوالد غير المبرر عن بيته مثلاً وإهمال الأم بسبب من استهتارها بحقوق أطفالها هما الظاهرتان السلوكيتان اللتان تسهمان الإسهام الأكبر في إفساد صورة الأسرة وتشويه الحياة فيها أمام الأطفال ، فالوعي بالمسؤولية لا تكفي فيه الموعظة الحسنة والكلام الطيب بل هو حصيلة السلوك اليومي ونتيجة حتمية للتصرفات العملية لكل من الوالدين . والثابت هنا أن الإعلام التربوي الوقائي لا يتم في الكثير الغالب عن طريق الحوار بالكلمة بل عن طريق الحوار بالقدوة.

في ضوء ما سبق نستطيع أن نقول : إن غرس عقيدة الوحدانية التي هي عنوان الفطرة السليمة يترتب عليه غرس الصدق في القول والفعل ومعرفة الحدود الفاصلة بين الحق والواجب ونمو الإحساس بالمسؤولية كما يترتب على هذه الصفات كل الخصائص النفسية التي تؤكد ظاهرة التوازن في حياة الأسرة وتدعيم وحدتها بحيث تصبح النموذج الصالح الذي ينتظر أن يتعامل الطفل من خلاله بعد كبره مع الناس في الحياة العامة .

والجدير بالذكر أن نجاح الإعلام التربوي والوقائي في حياة الأسرة تمهيد ضروري لنجاح الإعلام التربوي في المرحلة التالية التي تصبح فيها المدرسة طرفاً ثالثاً في العملية الإعلامية .

الإعلام التربوي في المدرسة :

يختلف المربون في تحديد دور المدرسة في ميدان الإعلام التربوي . وفي وسعنا حصر النظريات الموضوعة في هذا الإطار فيما يلي :

1) جاء في ص 13 من كتاب " الإعلام والاتصال بالجماهير " للدكتور ابراهيم إمام قوله تحت عنوان : "التعليم كوسيلة للاتصال بالجماهير"..

" إن المهمة الأساسية للتعليم هي تربية النشىء ، وإعداد المواطن الصالح جسمياً ونفسياً وخلقياً إعداداً يؤهله لخدمة الوطن في الحرب والسلم ، كما يساعده على تحقيق ذاتيته . ووظيفة التعليم أيضاً تنمية المهارات واستمرار التراث العلمي والأدبي والفني بتقديمه إلى الأجيال الناشئة . وإذا كان الإعلام يدور حول مشكلات الساعة وغيرها من المسائل الجدلية التي تحتمل تأويلات مختلفة ووجهات نظر متعددة ، فإنّ التعليم يقدم وجهات نظر ثابتة . ولا شك أن التعليم يساعد على تنمية الفكر وتقوية ملكة النقد وتربية الشخصية الإنسانية".

2) نظرية أخرى تقول : " إن مهمة التعليم الاساسية هي تنمية المهارات واستمرار التراث العلمي والأدبي والفني بتقديمه إلى الأجيال الناشئة أما ما يتعلق بإعداد المواطن نفسياً وخلقياً فهو عائد إلى الأسرة في الجوهر والاساس .

3) رأي ثالث يقول : صحيح أن مهمة التعليم هي تنمية المهارات واستمرار التراث العلمي والأدبي والفني . لكن المطلوب منه أيضاً ولا سيما في المراحل المتأخرة منه لا تقديم وجهات نظر ثابتة بل تدريب عقول الطلاب على النقد المنظم واختيار وجهة النظر النابعة من إحساسهم بمسؤولية الاختيار .

والواقع أن مهمة المدرسة في الإعلام التربوي المتصل بتكوين شخصية الطفل تأتي في الدرجة الثانية بعد مهمة الأسرة . وفي ضوء هذا التصنيف تتفاوت مهمة المدرسة سهولة وصعوبة بتفاوت النجاح الذي تحققه الأسرة في تربية الطفل وإعداده نفسياً وخلقياً لمواجهة مسؤولياته الدراسية التي تعتبر الامتحان الأول للإنجاز الأسري .

وهذا لا يعني إعفاء المدرسة من واجباتها الإعلامية التربوية . لكن الطالب الذي تستقبله لا يصل إليها معزولاً عن المؤثرات والعوامل التربوية التي تحقق ذاته وتنمي فطرته السليمة أو تنحرف به عن معطيات هذه الفطرة وتحول دون تحقيقه لذاتيته . لكن المهمة التعليمية الأساسية في المدرسة تنحصر في الغالب في تزويد الطالب بالمهارات ووصله بالتراث العلمي والأدبي والفني على أن من واجبات المشرفين على المدرسة أن يعبروا الجوانب النفسية والخلقية اهتماماً خاصاً قدر المستطاع بحيث يدعمون الانجازات التربوية الطيبة في الأسرة أو يقللون من سوءاتها . من هنا يأتي العامل الإعلامي التربوي الوقائي في المدرسة في الدرجة الثانية من الأهمية .

هذا الجانب من المسؤولية هو الذي يفرض إعداد المدرسين والفنيين التربويين بحيث يستطيعون بالخبرة التي يمارسونها والمعلومات التي يتلقونها في المعاهد التربوية الاستجابة للتحديات التي يواجهونها في تعاملهم مع الطلاب

الذين يفترض فيهم أنهم ينطوون على خبرات مختلفة باختلاف الأسر التي ينتمون إليها . فللمدرس مسؤولياته التربوية إلى جانب المشرف الاجتماعي والموجه التربوي والإدارات الفنية التي تقف وراءهم .

والواقع أن في وسع الهيئة التعليمية أن تلعب دوراً تربوياً إيجابياً ولا سيما إذا كان التعاون بينها وبين الأسرة مجدياً وكان التفاهم كاملاً بينهما .

الإعلام التربوي العلاجي :

إن الصورة التي قدمناها للإعلام التربوي الوقائي ليست هي الصورة الواقعية التي نلتقيها في الممارسات الأسرية دائماً . ذلك لأن الوعي الأسري لا يزال في حاجة ماسة إلى عناية الخبراء التربويين والإختصاصيين الاجتماعيين . وقد تكون هذه الثغرة موجودة في البلدان النامية أكثر منها في البلدان المتقدمة لكن الواقع أن كل المجتمعات في طول العالم وعرضه تشكو من ثغرات في التربية الأسرية والأنشطة المدرسية وإن اختلفت أنواع هذه الثغرات والأسباب القائمة وراءها .

فإذا كانت الأسرة في عالمنا العربي الإسلامي تفتقد التوازن المطلوب على درجات متفاوتة فإنّها لا تزال تحتفظ إلى حد بعيد بوحدتها ودورها الإيجابي في تنشئة الأطفال والإشراف عليهم وتوثيق العلاقة بهم حتى في مرحلة الشباب فإنّ الأسرة في بلاد متقدمة اقتصادياً ومتطورة علمياً قد فقدت الكثير من دورها وأصبحت كما يشير المختصون عاجزة عن تشكيل شخصيات الأبناء والاحتفاظ بوحدتها الأساسية . من أجل ذلك كانت الحاجة إلى الخبراء التربويين ماسة في كل المجتمعات دون استثناء .

ونحن هنا لسنا بصدد البحث في الإعلام التربوي والاجتماعي في بلدان أجنبية . إن مهمتنا هي مناقشة هذا الإعلام انطلاقاً من عقائدنا وقيمنا وتقاليدنا الخاصة .

لكن ماذا يستطيع الخبير الإعلامي أن يفعل بالتعاون مع المربين والاجتماعيين إذا لم تكن نقطة الانطلاق عنده نابعة من العقائد والقيم والتقاليد الخاصة بأفراد مجتمعه . إن كل جهد يبذله الإعلام التربوي والاجتماعي لمواجهة الثغرات الموجودة في سلوك الأفراد والجماعات وأفكارهم هو جهد ضائع إذا لم يعمل على تدعيم الصلة بين الأفراد والجماعات من ناحية وبين ما يمكن أن نطلق عليه اسم التراث القومي ، أو روح الأمة . وهذا يعني أن على الإعلام أن يحافظ على وحدة الشخصية عند المواطن وبالتالي على وحدة المؤسسات الاجتماعية وفي مقدمتها مؤسسة الأسرة . ولا سبيل إلى تدعيم هذه الوحدة على صورها المتعددة إلا بتنمية الاعتزاز بالتراث

القومي والتشجيع على ربط كل انجاز مادي أو أدبي بالعقائد والقيم والمثل التي ترمز إلى روح الأمة وتتحدد بها شخصيتها .

والجدير بالذكر أن اهتزاز الشخصية وانقسامها على مستوى الفرد والجماعة يترتب على أسباب كثيرة يفرض في الخبير الإعلامي أن يتعرف إليها ويوازن بين التأثيرات التي تحدثها في أفكار الفرد أو تصرفات الجماعة ذلك لأن معرفته بهذه الأسباب وقدرته على الموازنة بين تأثيراتها هما اللتان تساعدانه على حسن التحليل وطرح الحلول المناسبة .

ومما يلفت النظر اليوم أن الافراد والجماعات في أقطارنا العربية ، يعانون المتاعب من ازدواج الشخصية الذي ينتج عن الفلسفة التعليمية التربوية كما يترتب على العزلة الثقافية القائمة بين فريق كبير من المثقفين القياديين وبين القواعد الشعبية .

وفيما يلي نسجل بعض الملاحظات التي تلفت نظر الباحث في أوضاعنا التربوية الاجتماعية وفيما تحتاج إليه من السياسات الإعلامية بين الوقاية والعلاج .

1) الروح الرسالية عند المواطن مفقودة لأنه يعتبر الشهادة جوازاً للحصول على الوظيفة .
2) لا يهتم المواطن بأداء العمل الجيد وفي ضوء وعي ضميربي قدر اهتمامه بالحصول على أعلى العلامات إن كان طالباً وعلى أحسن التقديرات . إن كان موظفاً أو عاملاً في أي ميدان من ميادين الإنتاج .
3) ضعف روح الفريق عند المواطن مما يدفعه إلى تحقيق المكاسب لشخصه بأي وسيلة لأن المهم عنده هو أن يصل شخصياً وحسب.
4) ضعف روح المبادرة عند المواطن مما يحرمه من فرص التجديد والابتكار ويبطىء مسيرة الجماعة التي ينتمي إليها .
5) ضعف الثقة بأخلاق المواطنين مما يدفع إلى تغليب الشك والسبق إلى الاتهام قبل اللجوء إلى اليقين .
6) الانفصام الثقافي والوجداني بين القواعد الشعبية العريضة وبين القيادات الثقافية المهيمنة بصورة عامة . مما يجعل الحوار بينهما متعذراً أو شديد الصعوبة على الأقل .
7) انتشار الدعوة إلى قيم وعادات وأفكار غريبة عن روح التراث القومي مما يعزز الشك في كفاءة الأجيال الجديدة وعدم الثقة بالمقومات الحضارية الأصيلة للأمة .

8) عجز المناهج التعليمية عن إبراز الجوانب الإيجابية في التراث التاريخي للأمة .. ويبدو هذا العجز على صور متعددة منها الإصرار على تجاهل سياسة تعريب التعليم العلمي العالي بدعوى قصور اللغة العربية عن استيعاب العلوم الحديثة .. ومنها فقدان القدرة على تنمية الانتماء الحضاري والتنمية هذه لا تتم إلا بعرض الجوانب الإيجابية في التراث التاريخي .. ومنها هبوط مستوى التعليم بصورة عامة .. ومنها أخيراً القيم الداخلية التي تجعل من حضارة الاستهلاك غاية أساسية ومصدراً لأخلاقيات المجتمع .

9) ويترتب على عجز المناهج التعليمية ،هيمنة الفلسفات التعليمية والتربوية الأجنبية والسياسات الإعلامية التي ترافقها مستندة إلى إمكانات تقنية ضخمة وعمليات إغراق تتمثل في الأعداد الكبيرة والمشوقة لوسائل الاتصال الموضوعة تحت تصرف هذه الفلسفات ابتداء من وكالات الأنباء والصحف اليومية والمجلات الدورية والكتب والجامعات والمواد الإعلامية التي تزود الإذاعات المسموعة والمرئية ولا سيما الأخيرة منها .

10) يضاف إلى ما سبق أن عادات وتقاليد كثيرة تتسلل داخل مجتمعاتنا العربية في مقدمتها بيوت الأزياء العالمية والأنشطة الإعلامية التي ترافق السلع التجارية والتي بدورها تفرض عادات في العيش وأساليب في التعامل جديدة .

وخلاصة القول أن سياسة الإغراق الصناعي والفني والادبي والفكري التي تمارسها القوى الأجنبية مع مقاومة مباشرة وغير مباشرة لسياسة تنموية إيجابية شاملة أصيلة ، تلعب دوراً كبيراً في تجميد الطاقات فلا تسمح لها بالنمو والتحرك بحيث تصعب الاستجابة لحركية الإبداع والأصالة في الإنتاج الحضاري عندنا.

قد يتساءل بعضهم حين يستمع لما ذكر في الفقرات السابقة فيقول : ما هي الوسائل العملية التي نتجنب معها ظاهرة التعرض للسلبيات المذكورة في هذه الفقرات ؟ ويضيف قوله : وهل يكفي أن ينشر مثل هذا الكلام فيستجيب الناس لمحتواه ويتحقق الحلم الذي يحلم الناس به ؟

الجواب بالطبع هو " لا " أبداً.. إن المعالجة في ميدان الإعلام التربوي الاجتماعي في حاجة إلى خطة عمل واسعة يشترك في وضعها وتنفيذها كل أصحاب العلاقة لا في الأسرة الواحدة بل في المجتمع كله . ذلك لأن الصلة القائمة بين الأسرة والمجتمع هي صلة عضوية ، والفصل بينهما شأن نظري. إن كل معالجة مجدية في عالم الأسرة تصبح معالجة في عالم المجتمع .

وهذا يعني بالطبع أن الخطوات التي يجب أن تتخذ في ميدان الإعلام التربوي العلاجي هي نفسها من حيث الجوهر والأساس الخطوات التي يمكن أن يتخذ في ميدان الإعلام الاجتماعي العلاجي .

المهم قبل تفصيل البحث في هذا الجانب من الموضوع أنه نعود مرة أخرى إلى ما نهمه من كلمة " إعلام" ..

فالإعلام هنا هو إعلام برسالة . والرسالة هذه توجه إلى فرد أو جماعة . والغرض منها تحقيق انجاز معين أدبي أو مادي والرسالة هذه لا تحقق الغرض منها إلا إذا استجاب لها المرسل إليه بحيث يستطيع المرسل أن يعدل من رسالته أو أن يحتفظ بها في ضوء ما يستقبله من هذه الاستجابة . وهذا يعني أن الرسالة الإعلامية يجب أن تكون مرنة واقعية أي متصلة بما يجري في الواقع قادرة على تحقيق التطابق بينها وبين هذا الواقع .

والجدير بالذكر أن المرونة في الرسالة الإعلامية هي أخطر عناصرها . ذلك لأنها تتعامل مع كائن له عواطفه الخاصة وميوله الذاتية وفلسفته النابعة من تجاربه وتذوقه الخاص وذكاؤه وقدرته على الوعي بأبعاد ما يسمعه وبالتالي استعداده لتطبيق ما يقتنع به . وصاحب الرسالة يجب أن يصوغ رسالته التي يوجهها إلى فرد أو جماعة في ضوء كل هذه الاعتبارات . ومن هنا تبرز صعوبة النجاح في توجيه الرسالة الإعلامية . ومن هنا أيضاً يحتاج هذا النجاح إلى تضافر الجهود عند عدد كبير من العلماء وخبراء فنون الاتصال لإخراج رسالة إعلامية ناجحة .

ومما يلفت النظر في الرسائل الإعلامية أن النجاح فيها قد يكون مضموناً من الناحية النسبية في مواجهة موقف أو التأثير على مرحلة معينة من التفكير أو التغلب على صعوبة من الصعوبات لكنه لا يكون مضموناً حين توجه هذه الرسالة لإعادة تشكيل الفرد أو الجماعة تشكيلاً كاملاً ما لم تمكن وراء الرسالة الإعلامية عبقرية موهوبة لا في الفكر الإعلامي وحسب بل في الإرادة والسلوك أيضاً . وهذه العبقرية لا تتوفر إلا في القليل النادر.

وتوضيحاً للفارق الكبير بين الرسالة الإعلامية التي قد تنجح في اتخاذ موقف من قضية معينة أو التغلب على صعوبة من الصعوبات وبين الرسالة الإعلامية التي تهدف إلى إعادة تشكيل الفرد أو الجماعة بصورة كلية نورد من النموذج الأول بعض الوقائع التي سجلها الإعلاميون وعلماء الاتصال في الميادين التالية :

1) الدعاية : وقد عرفها وولتر لبان بما يلي : إن الدعاية هي محاولة التأثير في نفوس الجماهير والتحكم في سلوكهم لأغراض تعتبر غير عملية أو ذات قيمة مشكوك فيها في مجتمع معين وفي زمن معين وهذا تعريف ينطبق على الرسالات الإعلامية التي كانت تصدر عن النازية في العهد الهتلري . فقد استطاعت هذه الرسالة أن تكتسب تأييد طبقات كثيرة من الناس شأنها شأن الدعاية التي تمارسها الشيوعية في طول العالم وعرضه . لقد

استطاعت كل من الدعايتين أن تفوز بتزايد أعداد كبيرة من الناس . لكن سقوط العهد الهتلري أثبت أن النازية كانت حلماً يتعارض مع الواقع كما أن الشيوعية رغم النظريات الحتمية الواعدة التي ترددها لم تلبث أن سقطت في تمزقات ونشأت في المجتمعات التي تبنتها تعديلات خرج بعضها على أصولها الأساسية .

2) الحرب النفسية هذه الحرب تستند إلى نوع آخر من الرسائل الإعلامية . والرسائل هذه لا تهدف إلى قول الحقيقة بل إلى التمويه إما لزرع روح الهزيمة في صفوف الأعداء وإما لتنمية روح القتال وتغذية النفوس بروح التفاؤل بإيراد الاخبار على صورة ملائمة وفي كلتا الحالتين لا تكون الحقيقة هي محتوى الرسائل الإعلامية هنا بل هي المصالح المباشرة التي تفرض نفسها، إما هزيمة العدو وإما انتصار الأنصار.

3) الإعلان التجاري .. والغاية من الإعلان التجاري هي تسويق سلعة معينة وهذا لا يتم إلا بتزويق صورتها والمبالغة في التحدث عن منافعها بل والتزوير في بعض الأوقات . وهذا أمر معرف في الميدان التجاري .

4) التعليم ... والتعليم بدوره رسالة إعلامية ولكنها تتعرض تحت ضغط الاتجاهات العنصرية أو القومية المتطرفة أو المصالح الآتية لتحريفات تتفق مع هذه المصالح وتلك الاتجاهات . ولا شك أن المناهج التعليمية التي وضعت للبلدان المغلوبة على أمرها في العهود الاستعمارية من مثل منهج دنلوب مثلا كانت نماذج واضحة للإعلام التعليمي ذي الأغراض الملائمة لمصالح وضعية ومواقفهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وقد أورد بعضهم تعريفاً لدولة ألمانيا بعد حرب السبعين جاء فيه على صورة سؤال وجواب في كتاب من كتب الجغرافية المدرسية قول المؤلف : ما هي ألمانيا ؟

والجواب : هي وطننا الذي يحيط به الأعداء من كل جانب . والشأن هو نفسه فيما كان يكتبه الفرنسيون ويملونه على الاجيال الجديدة أو كان يسجله البلجيكيون من أنباء الحرب . فقد ذكروا في بعض كتبهم الدراسية أن الألمان كانوا يقطعون أيدي الأطفال عند احتلالهم لبلجيكا حتى لا يحملوا السلاح حين يكبرون.

وطبيعي أن كل هذا يحدث تأثيره لكنه لا يمثل الحقيقة فلا يلبث أثره أن يزول حين تظهر الوقائع خارج نطاق هذا النوع من التعليم .

5) العلاقات العامة ... وهي مهمة إعلامية وخير تعريف لهذه الظاهرة الإعلامية كما هي في واقع بعض الدول والمؤسسات ما روي على لسان بعض الخبثاء من خبراء العلاقات العامة ومنهم جون جولنكد الذي كان يردد الشعار التالي : إنك لا تستطيع أن تستغفل جميع الناس كل الوقت ولكنك تستطيع أن تستغفل 98 % منهم فترة طولها 98 % من الوقت ..

هذا النوع من الرسائل الإعلامية عاجزة عن المواجهة التامة للثغرات في حياة الأسرة أو المجتمع وإن كان في وسعه أن يحدث تأثيره إلى حد ما ولفترة معنية من الزمن ، فلا يجوز الاستعانة به لمعالجة الواقع التربوي أو الاجتماعي .

أما النوع الصالح من الرسائل الإعلامية فهو الذي يستعين بما يلي :

1) الصدق 2) الواقعية في التعامل مع الناس .

3) الالتزام بالعقيدة وأخلاقياتها بغض النظر عمن نتعامل معه ، فلا يغير من هذا الالتزام أن يكون من نتعامل معه قريباً أو بعيداً صديقاً أو عدداً شريفاً في قومه أو فقيراً غير ذي شأن .

4) الشمول في المواجهة والمعالجة بحيث يستفاد من كل اللقاءات والوقائع والمناسبات لتدعيم الاتجاهات الثلاثة السابقة .

والجدير بالذكر أن شخصية الإعلامي تلعب دوراً كبيراً في تزويد رسالته بالفعالية والديمومة ومعنى الشخصية هنا أي قدرتها على الفوز بثقة من يستمع اليها .

ولما كانت العملية الإعلامية التربوية مرتبطة بهذه العناصر ومتأثرة بالقيم الشائقة التي ترمز إلى روح الأمة وجوهر شخصيتها فإنّ خير نموذج لنا نحن المسلمين هو الظاهرة الإعلامية القرآنية التي جاءت على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . وإذا كنا قد اخترنا هذا النموذج فلأنه يمثل حقيقتنا التاريخية التي يستحيل علينا تجاهلها . فنحن مرغمون على الاستعانة بها والالتزام لتعاليمها واستلهام الأساليب التي استخدمت فيها لأنها القيمة الكبرى التي تكون بها وجداننا العميق . هذه القيمة هي في حقيقتنا الاجتماعية كما يكون أل "هو" في الحقيقة النفسية. أي أنها ليست في بنيتنا الاجتماعية قشرة خارجية تزول عند أول صدمة بل هي رمز لروحنا القومي العميق .

وهنا نتساءل : ما هي المقومات الأساسية لهذا النموذج الإعلامي التربوي والاجتماعي الإسلامي الذي يرتبط به أصالتنا التاريخية ؟ والجواب على هذا التساؤل هو في الحقائق التالية :

1) شخصية محمد عليه السلام قبل بعثته . فقد كان من استقامته وحسن السمعة التي يتمتع بها أنه كان يطلق عليه لقب "الأمين " فكان هذا اللقب المشهود له به قوة له وسنداً حين حمل العقيدة التراثية المتجددة والمتطهرة من الانحرافات الداخلية .

2) صدقة في روايته للخبر وصدقه في التعامل مع الصديق والعدو والقريب والبعيد فلم يؤثر عنه أنه كذب أو جامل أو تنازل عما يعتقده حقاً في أي موقف من المواقف حتى ولو كان في ذلك خسارة مباشرة أو هلاك له .

كان يقول للناس ما يعتمل في نفسه فلا يزيد ولا ينقص منه . وكان هذا الصدق هو الذي بنى جسراً قوياً صامداً ربط بين قلبه وقلوب الناس من حوله فلا يمنعه مانع عن قول الصدق مهما كان في خبره من الغرابة أو المخالفة عما اعتاده الناس من الوقائع والاخبار . والأمثلة على ذلك لا يحصيها عد ولا حصر لعلكم لا تحتاجون إلى إيراد أي منها فآدابنا الإسلامية حافلة بها .

3) الواقعية في التعامل مع الناس . وهذا يعني أن تعاليمه بكل ما فيها من الأوامر والنواهي موصولة بما يجري في الحياة اليومية . هذه التعاليم كانت إما جواباً عن سؤال أو توضيحاً لموقف أو حكماً في قضية أو إقراراً لأمر واقع. والتعاليم هذه كانت تأتي على صورة آية أو آيات من القرآن أو على صورة اجتهاد نابع من وعيه بروح القرآن ومعطياته الأساسية . وأسباب نزول الوحي السماوي هي التي تسلط الضوء على العلاقة القائمة بين الوحي وبين الوقائع الجارية .

4) الالتزام بالعقيدة وأخلاقياتها . هذا الموقف هو من أهم المواقف التي تمنح رسالته الإعلامية قوتها وفعاليتها فإذا أمر أصحابه بالقتال في سبيل الله اشترط لهذا القتال أن يكون في سبيل الله ورداً للظلم .. أو دفاعاً عن النفس وعن حق أصحاب الرسالة في الدعوة إلى الله " وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ" ..

وإذا نفذ حكما من احكام الشريعة لم يبال مكانة من يقع عليه هذا الحكم . وكان مما يقوله : لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ..

وإذا واجه مشكلة نابعة من الانتماء الطبقي او العنصري لا يتردد في توضيح موقف العقيدة منها غير مبال بالعصبيات الكامنة والنزعات الجاهلية فهو يقول : لا فضل لعربي على أعجمي .. ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . لأن التقوى في رسالته هي الامتياز الوحيد الذي يتمايز به الناس . ثم يتلو على أصحابه قوله عز وجل: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " ..

هذه هي أهم الشروط الاساسية لمواجهة ما يمكن أن نعتبره معالجة للإعلام التربوي الاجتماعي . والحياة في الأسرة هي الموطن الأساسي والأول الذي يجب أن يعمل فيه الإعلام التربوي كعلاج لمشكلة المواطن . ويترتب على النجاح في التخطيط للحياة الأسرية أن ينسحب هذا النجاح على الموطن الآخر الذي هو الميدان

الاجتماعي . ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن يميز بين الأسرة الواحدة وبين المجتمع الواحد . فالأسرة هي الخامة الأساسية التي يتم بها تصنيع المجتمع وتشكيله .

لقد كان في وسعنا أن نتحدث عن الاقتراحات العملية التي يمكن أن تطرح أساليب معينة لمواجهة المشكلات التربوية في البيت ثم المدرسة ثم الجامعة والمعاهد العليا ثم الحياة العامة من مثل توكيد الحاجة إلى خبراء اجتماعيين أو تكوين مجالس للأباء والأمهات أو التوسع في تطبيق العدالة الاجتماعية او إنشاء محاكم للأطفال تستعين بالخبراء الأجتماعيين أو إجراء إحصاءات للتعرف إلى حجم الانحرافات والثغرات الموجودة في البنية الاجتماعية . كل هذا ضروري دون ريب . لكنه يفقد كل أهمية له فيصبح جهداً ضائعاً إذا لم تتوفر الطاقة الأساسية للسياسة الإعلامية التربوية الاجتماعية وهي الطاقة التي تصدر عن تحقق المقومات التي أوردناها قبل قليل ووجدنا في محمد عليه السلام فكراً وسلوكاً والنموذج الأمثل لها .

أيهـــا الأخوة والأخوات .....

الحضارة في جوهرها ليست التقنيات التي يبتدعها الإنسان لبناء المجتمع وتنظيمه بل هي موقف خلقي نابع من قيمة كبرى هي العقيدة الأساسية التي تصدر عنها كل التصرفات وتستوحيها كل أنواع السلوك .

إن خطيئة خلقية تصدر عن الأبوين تحدث من التخريب السريع في نفوس الأطفال ما لاسبيل إلى ترميمه إلا بالجهود الكبيرة وإلا في الزمن الطويل . ذلك لأن الطفل يتعلم بالقدوة ما لا يتعلمه بالمواعظ وله قدرة بالغة على اكتشاف الصدق أو الكذب فيما يجري من حوله والخطيئة الخلقية عند الأبوين أو عند أحدهما تحدث من الإحباط في النفس ما لا يعالج إلا بخبرة الخبراء من علماء النفس والاجتماع أو ما لا يعالج أبداً رغم هذه الخبرة إلا بصورة ناقصة .

وهذا لا يعني بالطبع أننا نقلل من أهمية التكنولوجيا والتقنيات المتطورة في الميادين المادية والإنسانية لكن الحضارة تبقى في حالتي الغنى والفقر أو القوة المادية والضعف نتاجاً للإرادة الإنسانية ومبادرات الإنسان الذاتية . والتكنولوجيا والتقنيات أسلحة تتحدد جهة استغلالها والإفادة منها في ضوء هذه المبادرات وتلك الإرادة .

والغريب أن المسلمين الذين يتلون كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار يغفلون عن معنى وجود آيتين لو قوبلت إحداهما بالأخرى وعرفت الغاية من وجودهما لتبين لكل من يتدبرهما أن ما تتميز به السيرة الإنسانية الصاعدة هو الخلق أولاً الذي هو الامتياز الأساسي والذي قد يرتفع إلى مستوى العظمة ثم العلم الذي هو أيضاً امتياز آخر ولكنه محكوم بحدود وأبعاد معينة أي بقوانين وسنن لا سبيل إلى تجاهلها أو اختراقها . فالإنسان

مهما بلغ من العلم وأوتي من الخبرة بأسرار الطبيعة والكون يبقى عاجزاً أمام قضايا ومشكلات وأسئلة قد تكون من ضرورات المعرفة ومطالبها ولكنها ليست من ضروريات الحياة ومطالبها .

أما فيما يتعلق بالخلق فقد قال تبارك وتعالى يمتدح محمداً عليه السلام بما يتميز به من أقرانه أو من الناس أجمعين : " وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ " وقال تبارك وتعالى توكيدا لفاعلية بعض جوانب الخلق الكريم عند عباده "وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ "..

أما فيما يتعلق بالعلم فالقرآن بالرغم من مفاضلته الواضحة بين العالِم وغير العالِم في قوله عز وجل : " قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ ".. فقد أعلن محدودية العلم الإنساني بالإضافة إلى أنه لم يصف العلم الإنساني بالعظمة أبداً . قال عز من قائل وهو يجيب عن سؤال بعض اليهود عن طبيعة الروح : " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً "..

وخلاصة القول أن الإعلام التربوي الاجتماعي في حالتي الوقاية والعلاج كما صوره القرآن ، هو كتابنا السماوي الذي يعلو ولا يُعلى عليه . وقد جعل المدخل إلى العملية التربوية الاجتماعية رسالة تستند قبل كل شيئ إلى شخصية الإعلامي أولاً وبالذات . وشرط لنجاح هذه الشخصية في تأدية رسالتها على الوجه الأكمل في ميدان الأسرة الواحدة أو المجتمع الواحد شروطاً تجعل من الصدق والواقعية والالتزام بمنطق العقيدة وحصيلتها الأدبية والمادية مقومات أساسية لا غنى عنها أبدا .

أما ما وراء ذلك من تفصيلات تتصل بالتشكيلات العملية التي تفرزها الوقائع اليومية والأوضاع المادية والانجازات التكنولوجية وتساعد عليها عمليات المقارنة والإحصاء فهذا كله على أهميته يأتي في الدرجة الثانية .

والغرض البعيد من هذا التصنيف هو أن الرسالة الإعلامية في ميادين التربية والاجتماع يجب أن تهدف إلى تنمية الرقابة الذاتية عند المواطن المسلم . مع العلم أن العبادات حين تؤدى على وجهها الأكمل وأن التشريعات التي تعين الحقوق والواجبات وتنظم العلاقات بين الآباء والأبناء وبين الكبار والصغار وبين الحاكم والمحكومين ليست غير وسائل عملية لتنمية هذه الرقابة الذاتية إلى جانب سياسة الردع التي يفترض أن تنجح في تحقيق التوازن حين تعجز الرقابة الذاتية عن تحقيقه .

وأخيراً نستطيع أن نقرر بأن القدوة الصالحة هي القوة الإعلامية الكبرى التي تمنح الموعظة قوتها وفاعليتها وتتيح للحوار القائم بين المرسل والمرسل إليه فرصة كافية لتشكيل النفوس وتقويم العادات السيئة وصقل الأخلاق عند الفرد والجماعة .

والقدوة الصالحة لا تفعل فعلها ما لم تكن نتاجاً لعقيدة يتساوى بها الجميع وتنتفي معها الامتيازات باستثناء امتياز التقوى وتختفي معها كل الاعتبارات غير تلك الناجمة عن الكفاءة والقدرة على العمل . أي أنها عنوان لعالم تكون فيه المنافسة الشريفة الحرة والمتسلحة بروح الأخوة والتعاطف هي الحقيقة الكبرى التي يدور حولها الحق والباطل والخير والشر والتقدم والتأخر. وأي تجاهل لأبعاد هذا العنوان هو خرق لكل من البنية التربوية الفردية والبنية الاجتماعية . كما يترتب على هذه الحقيقة تقرير أن تعيين الحقوق والواجبات بعيداً عن ظاهرة التعاطف أو ما يسمى بالتكافل الشامل في حياة الأسرة الواحدة أو المجتمع الواحد هو تعرية للمجتمع والأسرة معاً من المحتوى الخلقي الذي هو وحده المصدر الأساسي للحفاظ على الوحدة وتحقيق التوازن والتكامل في العلاقات القائمة بين عناصرها المتعددة .

وخلاصة القول أن الإعلام التربوي والاجتماعي هو إعلام موحد لأن الفصل بين بنية الفرد وبنية المجتمع هو في الحقيقة فصل نظري، أما من ناحية الواقع فإنّ بنية المجتمع هي الحصيلة الطبيعية لبنية الفرد في الوحدة الأسرية. والنجاح الذي يتحقق في هذه الوحدة ذو مردود طبيعي على البنية الاجتماعية .

ولو أننا قلبنا النظر في السياسة الإعلامية للقرآن الكريم لتبين لنا أن الخطاب الموجه من قبل الوحي السماوي إلى الناس كافة لا يكاد يميز بين الفرد والجماعة . ثم أن الأوامر والنواهي التي تستوعب جملة التعاليم والتوجيهات تتعامل مع الوقائع الفردية أو الجماعية كما لو أن كلاً منهما بديل عن الآخر ومساند له . إن الخطة التربوية في القرآن وفيما كان يسوقه الرسول صلى الله عليه وسلم من الأقوال ويقره من الأفعال يتوجهان إلى الفرد على أساس أنه لبنة من لبنات البناء المجتمعي كما يتوجهان إلى المجتمع على أنه حصيلة التواصل والتناسق بين اللبنات الفردية . والسبب في هذا كله يعود إن صح التعبير إلى الفلسفة الحضارية الأساسية لدعوة الإسلام . إن هذه الدعوة هي وحدها التي تعرف الحضارة بأنها " الخلق " وحسب والعقيدة هي وحدها التي تزود الخلق بالطاقة الفاعلة التي يحتاج إليها . أما ما سوى ذلك مما تنتظم به حياة الفرد والجماعة وتتحقق به ظاهرات الوحدة والتوازن والتكامل فهي مجموعة من الأوامر والنواهي تتوفر بها الخصائص التي ذكرناها من قبل في هذه المحاضرة نعود ونوردها لأهميتها الكبيرة .

1 – الثقة التي يجب أن يتمتع بها الإعلامي .

2 – تصديق القول بالفعل .

3 – تعيين الحدود بين الحقوق والواجبات .

4 – تنمية الإحساس بالمسؤولية .

إن هذه الخصائص مجتمعة هي وحدها التي تجعل من الإعلام قوة فاعلة على سواء لكل من الفرد والمجتمع وتواجه البشرية على أنها ذات فطرة مشتركة لا تمايز بين أفرادها أو طبقاتها أو شعوبها . ومن الواضح أن الله عز وجل لم يوجه خطابه عبثاً إلى الناس كافة حين قرر أن الغاية من جعل الناس شعوباً وقبائل هي تحقيق التعارف بينهم في قوله عز من قائل : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ " .. الآية 13 من سورة الحجرات.

وطبيعي أن التعارف لا يتم إلا بتحقيق جامع مشترك بين أطرافه هو هذه الفطرة الواحدة التي فطروا عليها جميعاً دون استثناء .

بهذا المفهوم لا يعود الإعلام ذا طابع قومي أو اقليمي ولا تتعدد فنونه . بل يتميز بطابعه العالمي وفنه الواحد وخطته الواحدة المشتركة التي تستوعب البشر كلهم فكراً وعاطفة وإرادة ..